

# مراكش

## أيام في ساحة جامع الفنا

مراكش - دومينيك ميرل

ماذا أعمل هنا مرة أخرى بحق الكون؟ أعتز أن هذا ليس بالافتتاح المناسب لمقالة سياحية، ولكن المنطق والعقل لا مكان لهما في هذا الموقع الذي لا يوصف تقريبا حيث ساد الهرج لنحو 800 سنة أو يزيد. أقف في وسط ساحة جامع الفنا في الحي المراكشي. محاطا بأخلاق من العالم.

من الصور التي يأخذها لهم السياح. "إن بعضهم ليس هناك ماء في سقائهم". كما قال مرافقي عبد الله. وعندما عدت لزيارة هذا المكان للمرة الرابعة، بقي التساؤل عن سبب عودتي بحيرني، ولكنني أعلم وأنفا بأن لو توفرت لي فرصة الزيارة للمرة الخامسة لعدت، لأنها ساحة مدهشة بقدر ما هي غريبة. ولا يستطيع أحد تجاهلها، وحتى اليونسكو أضافتها أخيرا إلى القائمة المهمة للتراث الذي ينبغي المحافظة عليه. والألاف. وربما يصل الرقم إلى عشرة آلاف شخص يأتون يوميا إلى هذه الساحة الشاسعة. وهناك رجل يحمل قردين وقد استوقفني لأخذ صورة معه. ونفس ←

مراكش والقرى الجبلية المحيطة. كان هذا من ثمانية قرون خلت. ولم يتغير الكثير من ذلك الوقت، ما عدا أنها أشد ميلا للاضطراب كل يوم. وفي الصباح تزدهج هذه الساحة بعربات الفاكهة والحبوب القلادة. وباعة التوابل. والسقائين الذين يحملون السقاء الخلد وأفداح الشرب المعدنية، وباعة السلال والحدادين. ومن السهل التعرف على السقائين الذين تدل عليهم قبعاتهم المخروطية الغربية. أزيائهم الحمراء والأكواب المعدنية المدلاة إلى جوانبهم. ولكنهم نادرا ما يبيعون الماء في الوقت الحاضر، حيث إنهم يحصلون على أرزاقهم

وهناك حواة يهزون حبات الكوبرا التي نزعنت منها أسنانها. بهلوانات، موسيقيون، مشعوذون، فصاصون، سحرة، الوشامون بالحناء، الأعشاب الطبية والعلاجات من كل نوع. مما فيها رجل فرش غطاء صوفيا على الأرض وأقام فوقه طبابة أسنان. وهو يقوم باقتلاع الأسنان في المكان بواسطة الكماشة. وليس من السهولة التكهن بما قد يحدث في الغد إذ أن الحوادث الجديدة تحصل يوميا تقريبا. لقد كانت ساحة جامع الفنا في الأساس المكان الذي تجري فيه عقوبة القتل العلني بقطع الرؤوس. وأصبحت فيما بعد مكان التقاء المزارعين والتجار من

سور مراكش.

The Ramparts of Marrakech.



Morocco goats.

الماعز المغربي.

المساء، ورأينا حولها إلى سرك ذي ثلاث دوائر. ولم يتشابه عرضان.  
ووعدني عبدالله أنني سأرى ما هو أغرب في اليوم التالي. عنز يتسلق الشجر. وهكذا توجهنا بالسيارة في الصباح التالي إلى المنتجع البحري في الصويرة. وللعنز ولع بشجر الجوز المحلي الذي يختص به المغرب. وقد أصبح الماعز متنسلاً ماهراً بهوي الوصول إلى هذه الأوراق الشهية. ولكن هذا الرعي في أعلى الشجر يثير المزارعين بشكل جنوني لأن الماعز تأكل أيضاً بعض الجوز. وهذا الجوز هو مصدر الدهن الفاخر والغالي جداً في المغرب. ويستعمل القليل منه للرش على الزلاطة أو يؤدم به الخبز. والدهن عزيز على المغاربة والبعض منهم يحملون معهم منه قوارير صغيرة ويضيفون منه قطرة أو اثنتين إلى غذائهم في المطعم.  
"ربما سترأها عما قريب" قال عبد الله. بعد نحو ساعة من السياقة في غرب مراكش. وكانت تقف على مثل الصنف تقريبا، ورأينا أمامنا تماماً رتلًا من السيارات التي توقفت للفرجة على هذا المشهد الغريب. وها هي على أغصان الشجرة وبنحو ارتفاع 20 قدماً يقف درزن من الماعز. كما لو أنها متنسلاً الجبال الماهرين.  
وتبدو هذه الحيوانات الرشيقة غير عابئة بحضورنا وهي تقضم الأوراق بلا مبالاة. وكانت ألوانها سوداء، جوزية وبيضاء وهي تقف بلا حراك تقريبا فوق الغصون. وكما لو أنها زينة كبيرة على شجرة عيد الميلاد. ونحن في طريق العودة إلى مراكش. تركنا الماعز تأكل الأوراق. "الآن" قال عبد الله "ماذا تقول فيما رأيت؟". فأجبت "هل حاول أحد أن يزرع واحدة من هذه الأشجار في ساحة الفنا؟".

المغربية جذبا للسياح، فإنه يندر أن تجد واحداً من المسؤولين في المدينة من يمتدحها.  
وما وراء الساحة. هناك شبكة معقدة من الأزقة الضيقة خميها من الشمس مظللات مائلة. هذا هو السوق الرئيسي. واحد من أكبر الأسواق الحرفية في العالم. وهناك تنزيلات كثيرة في البضائع الجلدية. والمشغولات النحاسية. والمجوهرات والسجاد. وأيضاً كثير من النصب والاحتفال.  
وقد يطلب أصحاب المحلات 20 ضعف القيمة العادية للبضاعة الواحدة. خصوصاً عندما تكون بمفردك. وحتى لو استطعت الخلاص منهم بنصف القيمة، فسيظل أنهم قد ربحوا ربحاً فاحشاً. إعرف بضاعتك وقيمتها. أو تجول بصحبة من يعرف. وسيحسبك أنفك عندما تصل إلى التوابل والغذاء. ورائحة الزعفران والكمون والفلفل الأسود والثوم العجمي والثوم مع ورد البرتقال. ستصبح خليطاً خانقاً. وهناك محلات فيها أكوام من المكسرات والفواكه المجافة منضودة على شكل أهرامات. وقد عرضت بشكل يضيق كلما اتجه إلى الأعلى ويبدو البائع من وسطه إلى قمته في مركزها. إنه يزحف إليها من الأسفل ويبقى واقفاً معظم نهاره ومجراف في اليد وميزان في اليد الأخرى.  
ويقال أن هناك 5000 دكاناً منفرداً في السوق. وبعضها من الصغر بحيث إنه لا يزيد على حجم نلاجة. ومهما يكون الرقم، فإن المرء يضيع ببساطة في شبكة الأزقة المتلوية. ولكن أغلب الباعة سوف يدلونك على الخرج. لقد قمنا خلال وجودنا بمراكش بعدة زيارات لساحة الفنا. في الصباح الباكر. منتصف الظهيرة. وآخر



الكاتب مع وجه غرائبي مغربي.

The writer with an exotic Moroccan face.

الأمر يتكرر مع عازف العود مع حبة الكوبرا الدرداء. وهناك صبيان وهما يتلاكمان على سبيل المزاح. ثم أنهما يتوقفان ليغنيا معا. ولسبب ما يبدو الموقف اعتيادياً. ولدى جوالك في الساحة. فإن المشاهد. الأصوات والروائح تكون أحياناً فوق ما يتحمل.  
وفي أول المساء، يتم تغيير جديد. يبدأ فريق من الرجال بالوصول مع طاولات خشبية بيضاء طويلة وأواني الطبخ. وهناك صفوف و صفوف من اللحم المزوج بالتوابل. السمك. الكسكس. الخروف المشوي. والمرق المعمول في "الطاجين". وهو إناء من الطين له غطاء مخروطي ميز.  
ويتلوه عند غياب الشمس. إيفاد ألف مصباح ومصباح. أو هكذا يقولون. لتضيء الساحة. ويستمر الأكل والسهر فيها حتى ساعات الصباح الأولى. ثم ترقد ساحة الفنا لسبع ساعات حتى يعود تجار التوابل والفاكهة لبيدؤوا عمل اليوم التالي.  
ورغم أن الساحة هي مراكشية. وربما تكون أكثر المواقع